الميت لا تعني له الحياة اي شيء ، لانها لم تستطع بعد ان تمس شريط وعيه . المبرر الوحيد لاختراق جدار الخزان كان في القرع على بابه ، في تحطيم جداره ، لكن عندما لم نصل الى هذه النقطة ، فان موت الرجال الثلاثة اصبح مجرد جزء من حدث يجري في الخارج . في مشل السائق .

هل يبقى من مبرر لطرح التساؤل على لسان ابي الخيزران والصحراء ، بعد ان رميت الجثث أمام القمامة ؟

يقفز التساؤل الى ذهن ابي الخيزران فجأة كما تقول الرواية . ثم يأخذ معناه في الصدى الذي تردده الصحراء ويبقى عالقا في ذهن القارىء . هذه اللحظة المفاجئة التي تجعل السؤال البديهي مفاجئا تعني اساسا عدم قدرة بنية الرواية على طرح الاسئلة . فيأتي السؤال من خارجها ، ليعيد تفسيرها ويشحن رموزها بامكانيات المستقبل .

ان عدم قدرة جدل عناصر الرواية الداخلية على الوصول الى التساؤل ، تعني ان الرمز الكبير — الخزان — لم يستطع أن يشحن بالحركة الواقعية . ففرض حرارته على الابطال وشل قدرتهم على التحرك . هنا تصل بنية الرواية الى مأزقها وطموحها في آن : مأزقها ، في عدم القدرة على الاقناع من داخل حركة الرمز فيها ، فتلجأ الى عناصر خارجية لتقوم بتعبئة فراغات الرمز . وطموحها ، في كونها صدى لمحاولات الخروج من مأزق الخزان — السكون . فالخروج الفردي من المخيم الى البحث عن خلاص جزئي — وهذا هو المستوى الواقعي في الرواية — يتساقط ليفسح المجال أمام ضرورات قرع جدار الخزان وكسره . هذا القرع لا بد وان يكون عملا جماعيا . نقيض رحلة الهرب الى الكويت ، لذلك يضع نفسه في اطار آخر . يشير الى المخيم والى ضرورة كسر جداره والخروج منه جماعيا الى الوطن — وهذا هو المستوى الرمزي في الرواية — لذلك يضطر النص الروائي للجوء الى عناصر من خارجه لتقوم بكسر حركته، ورسم الملامح الاولى لجدل الخروج ، الذي لن يأتي الا على ايقاع الثورة الفلسطينية .

بين الدعوة الى كسر جدار الخزان وبين كسره في « ام سعد » تقع مسافة الهزيمة الحزيرانية ، التي قامت بعنصريها السلبي والايجابي ، بقلب معادلة « رجال في الشمس » . « فعائد الى حيفا » . تكشف للوعي الفلسطيني المذهول بالهزيمة ضرورات المعارك التي لا بد من خوضها ، وحركة المقاومة تضع الشروط الاولى للشروع في مسيرة المعارك . لكن الجدل الداخلي الذي تبحث عنه علاقات الرواية الداخلية، لا يزال غائبا، ولا بد من اكتشافه في لهب الممارسة اليومية . هنا تأتي اهمية « الاعمى والاطرش » ، ففي العودة الى خزان « الحواس » ، يعيد كنفاني اكتشافه للعناصر الداخلية التي تسمح له ليس فقط بطرح سؤاله ، بل بتلمس الجواب على سؤال واقعي يخرج من صلب الممارسة .

العلاقة المستحيلة مبدئيا بين الاعمى والاطرش ، تتحول في مشروع الرواية الذي لم يكتمل ، آلية اكتشاف الاجوبة من داخل أسئلة تطرحها الحاجات اليومية لحياة المخيم . واللجوء الى الرمز في الشخصيتين الرئيسيتين ، هو عودة الى الحواس الاولى لتفجيرها من داخلها ، جعل اكتشاف الحركة ضرورة تنبع من داخل الحياة اليومية ، في الجدل اليومي الذي لا يتوقف عن طرح الاسئلة . داخل أسئلة هذا الجدل ، تبدأ الأجوبة في البروز راسمة ملامح المستقبل . هكذا القصة تبرز فجأة ، لانها تحمل في ثناياها تاريخا طويلا من المعاناة . ثم حين يأتي اللقاء في المقطع الثالث من الرواية، يكون عند الولي — الوهم ، الذي يجري كشفه في حركة حوار مستحيلة بين الرجلين ، هنا تبدأ الرواية برسم مستقبلها ، تكتشف ارضها الواقعية ولا تستمر .